الأستاذة : عايدة سعدي المركز الجامعي– سوق أهراس

أسلوب – كاتجاه نقدي حديث- وعلاقته بالإحصاء

توطئة :

قبل التطرق إلى علاقة النقد الأدبي مع غيره من العلوم ، يحسن بنا – ونحن في هذا المقام-التفرقة بين مصطلحي « النقد العربي » و« النقد الأدبي » ، فقد عني بعض الباحثين المعاصرين باستخدام هذين المصطلحين، فنجدهم يطلقون عادة مصطلح (النقد الأدبي) على كل ما يتصل بالنقد الحديث ، في حين يطلقون مصطلح (النقد العربي) على تراثنا من النقد القديم .

على أن التمييز بينهما كان ضروريا ،وهو أمر اقتضته سنة التطور وحتميته في مجال النقد ، كما فرضتها طبيعة المفاهيم العامة للنقد (1) .

وقد وصلنا المصطلح الجديد من الغرب في مطلع القرن العشرين ، فكان نتيجة للترجمة الحرفية للمصطلح العربي (LITERARY CRITISISM) .

إن التباين بين المصطلحين عائد دون شك إلى طبيعة كل منهما، فالنقد القديم في أغلبه نقد للجزئيات ، يتسم بمحدودية وضيق ، فلا يتناول الموضوع إلاّ لماما ، إلى جانب التعرض للبيت أو البيتين دون الإحاطة بالقصيدة ككلّ ، علاوة على الأحكام الذاتية التي صبغت هذا النقد.

وعليه يمكن القول بأنّ نشاط هؤلاء النقدي كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص(2) ، كما يعنى(النقد القديم) دوما بالآلات من اللغة والاشتقاق والنحو والصرف والبلاغة الجافّة (3) ، فهو بذلك لا يربط بين الأدب واتجاهاته الإنسانية أو الفنية بنظريات عامة(4) .

في حين نجد(النقد الأدبي) أوسع دائرة ، وأكثر شمولية لعناصر الأدب ، وأكثر ارتكازا على مختلف الثقافات والمعارف المتنوعة، إلى غير تلك الصفات التي تجعل التفريق بين النقد

العربي والنقد الأدبي ضرورة حتمية وملحة ، ولذا كان الأولى جعل (النقد العربي) للقديم من النقد ،و(النقد الأدبي) للحديث منه (5).

لم يقتصر النقد الأدبي عند العرب والغرب على حد سواء على علوم اللغة والبلاغة والنحو والصرف وغيرها من العلوم المتجانسة مع النقد ، بل نجده يتجاوز ذلك إلى معارف وعلوم بعيدة عنه كالفلسفة وعلم الاجتماع ،و علم النفس ، علم الجمال، التاريخ، علوم القرآن،باعتبار أن الناقد لابد أن يكون واسع الإطلاع، آخذا بكل علم من طرف ، وذلك دون شك يساهم أيما مساهمة في طرق النص الأدبي وسبر أغواره ، ذلك أن واقع النقد الأدبي هو واقع الانفتاح على بقية حقول المعرفة.

و سنحاول ونحن في هذا الصدد أن نتبين علاقة« الإحصاء » بالأسلوبية – باعتبارها اتجاها من بين الاتجاهات النقدية التي ظهرت حديثا ، وأهمية الإحصاء - بصفته واحدا من العلوم التكنولوجية - في تحليل النص وكشف أبعاده الدلالية على تنوعها تبعا لتلك القيم العددية .

يعّد المنهج الإحصائي قمة ما توصل إليه النقد الأدبي في مجال« الأسلوبية » لما له (الإحصاء) من هدف ودور فعّال في إضفاء وتحقيق الجانب الموضوعي، و هو يقترب بذلك من منهجي العلم التجريبي و الرياضي ، مبتعدا بذلك عن نطاق الذاتية والانطباعية التي اتصفت بها غالبا الأحكام النقدية (6)، إنها أي الأسلوبية الإحصائية تحاول أن تصل إلى تحديد الملمح الأسلوبي للنص عن طريق الكم ، و هي بالتالي تقوم على إبعاد الحدس و ذلك لصالح القيم العددية (7)،أي أنها تعمل على تخليص ظاهرة " الأسلوب" من الحدس الخالص، فتستبدله بحدس منهجي موجه ، كما يمكن لهذا المنهج أن يكمل مناهج أسلوبية أخرى بفعالية(8)،إنه "ليس أكثر من إجراء منهجي يقع داخل المنهج الواحد ، و يمكن أن يستعين به أي منهج ...فهو مجرد " منهج مساعد" لأنه يفتقر إلى كثير من المقومـــات المنهجيـــة ، كالاستقلاليـــة و القدرة على الانتشار و الهيمنة على الظاهرة (الأدبية) ، والقدرة على الاختراق الشامل للبنية النصية لا سيما تلك البنى التي يصعب إخضاعها للقياس الكمّي .

لقد استوطن الإحصاء سائر الحقول المنهجية في سياق غزو العلوم التجريبيـــة ومناهجها الإنسانية تحت وطأة التفكير الوضعي المناهض لـــ (خرافة الميتافيزيقا) !،ووجد لنفسه منافذ متعددة في دراسة الظاهرة الأدبية ..." (9)

و قد أبعدت الدراسة الإحصائية للنصوص الأدبية تلك العوامل التي يحتمل أن تعقد العمل كالتطور التاريخي في علاقته بالنص و الواقع ، فالتواصل النصي نجده قد اختزل في السنن اللساني بمختلف مكوناته و تأليفاته (10).

لقد استحسن الكثيرون دخول الدراسة الإحصائية إلى مجال علم الأسلوب باعتبار أن البعد الإحصائي في أي علم يعد من بين أحد المعايير الموضوعية التي يمكن من خـــلالها تشخيص الأساليب ، و تمييز الفروق بينها.

إن أهمية المنهج الإحصائي تعود إلى أنه يحقق بعدا موضوعيا في الدراسة ، كما يمكن بواسطته تحديد الملامح الأساسية للأساليب ، أو في التمييز بين السمات و الخصائص اللغوية التي يمكن اعتبارها خواصا أسلوبية و بين تلك السمات التي يأتي ورودها في النص ورودا عشوائيا (11).

هذا ،و نجد "بيرجيرو" يؤكد على أن "... الإحصاء لا يتوانى عن فرض نفسه أداة من الأدوات الأكثر فعالية في دراسة الأسلوب"(12).

و في نطاق مفهوم الانزياح يتأكد لقاء ارتباط هام بين الأسلوبية و الإحصاء ، و بما أن الأسلوبية هي في جوهرها علم الانزياحات اللغوية فإن الإحصاء – تبعا لذلك– هو العلم الذي يدرس هذه الانزياحات اللغوية ، فيسمح بالتالي بملاحظتها و رصدها و قياسها و تأويلها .

إن دراسة الأسلوب إذن من الناحية الإحصائية تفترض توفر طريقتين : إحداهما تشخيص الواقعة ، و الثانية قياسها. كما لا تعد كل الانزياحات داخلة في نطاق عناصر الأسلوب، و يمثل "جان كوهين" لذلك بقوله أن: " وفرة الكلمات الوحيدة المقطع في الشعر بالقياس إلى النثر لا تعني بالضرورة أن للكلمات القصيرة أسلوبية . فقد لا تكون هذه الواقعة إلا نتيجة لما توفره الكلمات

القصيرة من سهولة الوزن ، إنها ليست إذن إلا نتيجة للواقعة الوزنية التي تعتبر وحدها مميزا

شعريا " (13) ، و يذهب أيضا "كوهين" إلى أن " وجود انزياح ذي تردد دال إحصائيا هو وحده الكفيل بالسماح بتحويل ما كان في مستوى الحدس و كذا العاطفة مجرد فرضية ، إلى حقيقة واقعية(14) .

و تعود أهمية العمل الإحصائي إلى كونه يقدم بيانات دقيقة و محددة بالأرقام و النسب لسمة لغوية أو أكثر التي يتميز بها نص أدبي ما ، و نجمل أهم هذه السمات فيما يلي :

1- استخدام مفردات معجمية معيّنة.

2- الزيادة أو النقص النسبيان في استخدام صيغ معينة ، أو نوع معين من الكلمات (صفات ، أفعال، ظروف ، حروف جر...إلخ).

3-طول الكلمات المستخدمة أو قصرها .

4-طول الجمل.

5-نوع الجمل (اسمية ، فعلية، بسيطة ، مركبة ، إنشائية ، خبرية ...إلخ) .

6-إيثار تراكيب أو مجازات و استعارات معينة .

و هذه السمات اللغوية إذا ما حظيت بنسبة عالية من التكرار ، و إذا ما ارتبطت بسياقات معينة على نحو له دلالته ، فإنها تصبح خواصا أسلوبية تظهر في النصوص بنسب و توزيعات وكثافة معينة (15) ، إضافة إلى ذلك نجد أن الطريقة الإحصائية تعنى "بالكلمات المفاتيح" من حيث نسبة ورودها قياسا إلى الكلمات، و كذا الربط بينها و بين عقلية المبدع ، و قد يعتمد المحلل الأسلوبي على الإدراك المباشر في الحكم على توافر سمة الأسلوبية على نحو مؤثر ، مثلما كان الشأن مع العرب القدامى في مجال موسيقى الشعر و كذا ظواهرها .

و قد يلجأ المحلل الأسلوبي للقيام بإجراء عملي معتمدا على الحاسب الآلي، و إن كان استخدامه غالبا غير مجد؛ ذلك لأن ورود الكلمات المفاتيح على سبيل المثال عشرين مرة أو أكثر لا يغير من طبيعة الحكم عليها. كما لا يلتفت بها أيضا عن وظيفتها (16).

و مما سبق تبين لنا أهمية الإحصاء في دراسة العمل الإبداعي. بـــــل إن« ل. دوليجيل » « L.DOLEZEL » اعتبره " خلفية ضرورية لأي نظرية أسلوبية"(17).

و مع اعتبار الإحصاء إجراء منهجي مجرّد. يمكن لأي منهج أن يستوعبه فهو يستهدف "تكميم الظاهرة الأدبية وعلمنة المنهج النقدي . فيقوم الناقد بتصنيف النص إلى"عينات"كل عينة منها تشتمل على ظاهرة فنية معينة،تسعى إلى رصدها إحصائيا حسب نسبة تواترها وتقارن بنسب أخرى في إطار العينة ذاتها ان هو أراد ذلك . كما يمكنه الاستعانة بالجداول والرسوم البيانية ، و حينما ينتهي الإحصاء تبدأ مرحلة تفسير المادة الإحصائية (18)

و عموما لقد أثار الإجراء الإحصائي جدلا واسعا و حادا في الساحة النقدية. يتنازعه موقفان متعارضان: الأول يفضّله و يدعو إليه بحجة أن إجراءه يتمتع بالموضوعية و الدقة العلمية . إذ عدّ" أداة كاشفة و معينة. ووسيلة منهجية و عدة . و هي قادرة –إن شاء الله–على أن تخطو بنا خطوات فساحا في سبيل عقلنة الذّوق. و علمية التنازل و التسويغ المنطقي للأحكام . و التفسير المنضبط للظاهرات الأدبية" (19) .

كما يساعد المنهج الإحصائي على حل المشاكل الأدبية كالتحقق من شخصية المؤلف ، وتوثيق نسبة النص الأدبي إلى صاحبه . كذا فهم التطور التاريخي في كتابات الكتب . كما يلعب دورا كذلك في تحديد الترتيب الزمني لكتابات مؤلف واحد . علاوة على تقديمه بيانات دقيقة و محددة بـــــالأرقام . كثير من تلك السمات اللغوية المتعددة لنص ادبي معين(20) .

على أن الموقف المعارض ينبذ الطريقة الإحصائية . داعيا لتجنبها نظرا لإحالتها النص الأدبي إلى ظاهرة علمية جامدة . و من سلسلته أنه لا يفضي إلى شيء ذي بال . فقد تكون تلك

النتيجة التي يتوصل إليها الإحصاء الرقمي أمرا مدركا بالعين المجردة ، كما يفضي هذا الإحصاء الرقمي إلى عدم مراعاة التأثير السّياقي للنص الذي يعد مطلبا مهما من مطالب التحليل الأسلوبي(21) ، فيغدو بالتالي هذا الإجراء مصادرة خطيرة للذوق النقدي الجمالي؛ إذ أن تركيز الأسلوبية الإحصائية على النص من حيث حصره في زوايا و فرضيات ضيقة كقياس السمات الأسلوبية المشتركة في الاستعمال أو قياس النسبة بين تكرار خاصية أسلوبيـــة و تكرار خاصية أخرى ، أو قياس معدلات كثافة الخصائص الأسلوبية في عمل معين أو عند كاتب معين أو قياس التوزيع الاحتمالي لخاصية أسلوبية معينة أو غير ذلك من الإحصاءات التي تفضي إلى أهمية بالغة ، إلا أنها لا تؤتي ثمارها إلا إذا وُضعت في خدمة النص أو وظفت مع غيرها في الكشف عن ظواهر و خصائص فارقة ؛ إذ أن التركيز على هذه الخصائص بمفردها دون الأخذ بعين الاعتبار لتلك الظواهر الأخرى الموجودة في النص سيصيب الأخير بأبلغ الضرر، كما يحيله إلى ضرب أشبه بضروب الرياضيات البحتة ،إلا أن ذلك لا يعني أبدا التقليل من الجهود التي تبذل في هذا المجال أو عدم الاعتراف به ، بل إنها جهود مثمرة بإمكانها أن تسهم في الكشف عن ظواهر مهمة في العمل الأدبي ، إلا أنها لا تستطيع أن تنهض لوحدها بعبء تحليله، بل يمكن ذلك من خلال تضافر هذه الجهود مع جهود المناهج النقدية الأخرى (22)

و مهما يكن من أمر فإن للإحصاء دور هـــــام في فتح مغـــاليق النـــص الأدبـــــي من الناحية الدلالية، بل إنه أداة منهجية تسعـــى لإدراك الـــــــظواهـــر الفنية إدراكـــا موضـــوعيا لكن شريطة عدم اقتصاره على العمليات الحسابية الرقمية المجرّدة ، إنمـــــا يتجـــاوزها لتحديـــد دلالتها بحيث يأخذ بعين الاعتبار وظيفة الذوق الجمالي .

الهوامش :

1) العربي حسن درويش : النقد العربي القديم ، مقاييسه واتجاهاته وقضايـــــاه وأعلامه ومصادره ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، دط . دت، ص : 16.

2) شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، دار المعارف، مصر ، 1962، ص :31.

3) شكري فيصل : مناهج الـــــــــدراسة الأدبية ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1953، ص:135.

4) محمد غنيمي هلال:المدخل إلى النقد الأدبي الحديث،مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1958 ،ص:178 .
5) العربي حسن درويش : النقد العربي القديم ، مقاييسه واتجاهاته وقضاياه وأعلامه ومصادره ، ص :18.
6) شفيع السيد : الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي ، دار الفكر العربي ، القاهرة، دط، دت، ص :175.
7) فرحان بدري الحربي : الأسلوبية في النقد العربي الحديث ، دراسة في تحليل الخطاب ، مجد ، بيروت ، ط1، 2003، ص : 19.
8) هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ، ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري ، إفريقيا الشرق، دط ، دت، ص :60.
9) يوسف وغليسي : مناهج النقد الأدبي ، جسور للنشر والتوزيع ، الجزائر ط1 ، 2007، ص :120.
10) هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية : ص59.
11) سعد مصلوح:الأسلوب،دراسة لغوية، إحصائية ،عالم الكتب ، القاهرة ، دط ، دت ، ص :51.
12) بيير جيرو :الأسلوب والأسلوبية،تر:منذر عياشي ، مركز الإنماء القومي، لبنان ، دط، دت ، ص : 86.
13) جان كوهن:بنية اللغة الشعرية،تر :محمد الولي ومحمد العمري،دار توبقال للنشر، دط ، دت ، ص :17.
14) المرجع نفسه .
15) شفيع السيد : الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي ، ص : 176.
16) عدنان حسين قاسم : الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي ، الدار العربية،مدينة نصر ، دط ، 2001، ص ،ص : 267 ،268.
17) سعد مصلوح : الأسلوب ، دراسة لغوية إحصائية ، ص : 53.
18) يوسف غليسي : مناهج النقد الأدبي ، ص : 121.
19) سعد مصلوح : في النص الأدبي ، دراسة لغوية إحصائية ، عين للدراسات والبحوث ، الهرم ، ط1، 1993، ص :09.
20) يوسف أبو العدوس:الأسلوبية، الرؤية والتطبيق،دار المسيرة،عمان،الأردن،ط1، 2007،ص 154.
21) المرجع نفسه ، ص :153.
22)فوزي عيسى: النص الشعري وآليات القراءة،منشأة المعارف بالإسكندرية،دط ،دت،ص،ص :14 ، 15